﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الكافرون إنْ تَمَكَّنوا مِن المؤمنين وظَفِروا بهم بادَروا إلى إظهارِ العَداوة

لمّا أخبَرَ الله تعالى أنَّ مَن يتَّخذُ عدوَّ الله قد ضلَّ عن الحقِّ والهدى؛ لتوهُّمِه أنَّ هذا نافعٌ له في الدّنيا ناسَبَ أن يُبيِّنَ سببَ هذا الضّلال، فذكر أنَّ الكافرين إنْ تمكَّنوا من المؤمنين وظَفِروا بهم بادروا إلى إظهار العداوة، فقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾، وهذا عينُ الضّلال عن السّبيل في الدُّنيا إن بقي الموالي للكافرين من المؤمنين على موالاتِه، وعن سبيل الآخرة إنْ لَحِقَ بالكافرين.

وأيضًا لمّا نَهَى المُؤمنينَ عَنِ اتِّخاذِ الكُفّارِ أوْلياءَ، وشَرَحَ ما بِهِ الولايَةُ مِنَ الإلْقاءِ بالمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ، وذَكَرَ ما صَنَعَ الكُفّارُ بِهِمْ أوَّلًا مِنْ إخْراجِ الرَّسولِ ﷺ والمُؤْمِنينَ ذَكَرَ صَنيعَهُمْ آخِرًا لَوْ قَدَروا عليهم مِنْ أنَّهُم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: يدورُ معنى الكلمة على تمكّنٍ يُبْلَغُ به أتقنُ أحوال الشَّيء وأحكمُها[2]. وأصلُ الكلمة من قولهم: خَلٌّ ثقيفٌ[3]؛ لإحكام تعتيقه وضبطِه، ورمحٌ مُثَقَّفٌ؛ أي: مقوَّم[4]، والثَّقْفُ: الحِذْقُ في إدراكِ الشّيء وفعلِه[5]. وثَقُفَ الرّجلُ ثَقافةً إذا صارَ حاذِقًا ضابطًا لِما يحويه قائمًا بِهِ[6]. ثمَّ يُتجَوَّزُ بالثّقف فيُستعمَلُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 152.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقف).
(4) الرّاغب، المفردات: (ثقف).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثقف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقف).

في الظَّفَرِ والإدراكِ مطلقًا. فمَن تمكَّن ما يحيط بالشَّيء منه أشدَّ التّمكُّن يُقال له: ثَقِفَه؛ أي: ظَفِرَ به أو أدركه[1]، ومعنى ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾: يظفروا بكم[2].

2) ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾: البَسْطُ: نَقيضُ القَبْضِ. وأصلُهُ الأرض البَساط، وهي المنبسطة المستوية. وبسَطُ الشّيءِ: نَشرُه وتوسيعُه، وبَسْطُ اليدِ: مَدُّها. وبَسْطُ اليدِ يُستعمَلُ تارةً للطَّلبِ، وتارةً للأخذِ، وتارةً للبذلِ والعطاء، وتارةً للضَّربِ؛ لأنَّ الَّذي يَضرِبُ يَمُدُّ يدَهُ وينشرُها. ثمَّ توُسِّعَ فيه، فيُقال: بسَطَ لسانَه إذا أساءَ إليه بالقول. ومعنى ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾: يَمُدّوا أيديَهم بالعقوبة، وألسنتَهم بالشَّتيمة[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

خُلَّةُ غيرِ المتَّقينَ المؤمنينَ لا مُعَوَّلَ عليها

أخبَرَتِ الآية الكريمة أنَّ موالاةَ المؤمنين للكافرين أعداءِ الله غيرُ نافعةٍ في الدّنيا والآخرة، وأنَّه لا يَنفَعُ التّقرّب إلى الكفّار وموالاتُهم، بنقلِ أخبار المسلمين الخطيرة أو نقلِ ما أعدُّوا في الحرب إليهم، فذكرتْ أنَّهم إن يلاقوا المؤمنين ويظفروا بهم يَكونوا لَهُمْ أعداءً لا موالين لهم، ويمُدّوا إلَيهُم أيديَهُم بالضَّرب والقتل، وألسِنَتَهُم بالشَّتم والإهانة، وأنَّهم تمنَّوا لهم أنْ يكفروا بربِّهم فيكونوا على مثلِ الَّذي هم عليه من الكفرِ[4]. فكيف يَراهم المؤمنون على هذه الحالِ ويتَّخذونهم أصدقاءَ وأولياءَ؟! ومَقصِدُ الآية النّهيُ عن موالاتهم بسَرْدِ الدَّليل على ذلك[5].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(2) السّجستاني، غريب القرآن، ص: 525.
(3) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 382.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 316، والبغوي، معالم التّنزيل: 5/ 70.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 63.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بيانُ الأسبابِ مُعينٌ على تخفيفِ الآلامِ والتِزامِ التَّكاليف

فُصِلَتْ جملةُ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، مفيدةٌ معنى التَّعليلِ لقولِه في الآية السّابقة: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فمَنْ يوالِ الأعداءَ يتوهَّمْ أنَّ موالاتَهم من الدَّهاء والحزم؛ رجاءَ نفعِهم إنْ دالَتْ لهم الدّولة، فيظنُّ أنَّ في موالاتِهم منفعةً، فكأنَّه قيل: لِمَ ضَلَّ السَّبيلَ مَن يتَّخِذُ عدوَّ اللّه أولياءَ وهو إنّما يفعلُهُ لفائدةٍ ومنفعة قد تصلُ إليه بسبب هذه الموالاة؟ فأجيب: بأنَّ أعداءَ اللّه إن تمكّنوا من المؤمنين وظفروا بهم فلن يكونوا لهم موالين، بل سيكونون لهم أعداءً؛ لأنَّ عداوتَهم عداوةُ كفرٍ.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

المؤمنُ كيِّسٌ فَطِنٌ ملتزمٌ بشرعِ الله، فلا يقعُ، وإنْ وقَعَ فبسببِ ضعفِهِ وتقصيرِه

جاءت الجملةُ الشّرطيَّةُ مصدَّرةً بحرف الشَّرط ﴿إِن﴾ الَّذي يستعملُ فيما هو غيرُ متحقِّقِ الوقوع، أو يَندُرُ وقوعُه؛ وذلك لتصويرِ أنَّ ظَفَرَ عدوِّ اللّه بالمؤمنين لا يصلُحُ إلّا لمجرَّد الفَرْض، كما تُفرَضُ المحالاتُ متى تعلَّقَتْ بفَرْضِها أغراضٌ، وأنَّ ظَفَرَهم بالمؤمنين إنّما على جهةِ الاستبعاد، وأنَّه في مقامِ واجبِ الانتفاء؛ فيلزمُ منه القطعُ بعدم موالاتِهم وعدمِ إلقاء المودّة إليهم؛ ففيه تنبيهٌ على ما ينبغي أن يكون، وأنَّ الظَّفَرَ بالمؤمنين قد يتحقَّقُ إن ظهَرَ منهم تقصيرٌ وضعفٌ في التِزام الشّرع، فاستعمالُ ﴿إِن﴾ لبيانِ عدم تحقُّقِهِ على وجه القطع، وللتّنبيه على أنّه إنْ وقَعَ فسيكونُ كيتَ وكيت.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

شُغلُ الكَفَرةِ الشّاغلُ هو مُحاوَلةُ الإيقاعِ بالمؤمنين

أفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ أنَّ الكافرين مستمرّون على التَّربُّص بالمؤمنين للظَّفَرِ بهم، وأنَّ هذا الأمرَ يتجدَّدُ عندهم دائمًا.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾:

التَّناسُبُ بينَ الألفاظِ ملحوظٌ في انتقاءِ النَّظْمِ لمُفرداتِه

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ دون (يظفروا بكم)؛ لِما يُشعِرُ به لفظُ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ من معانٍ مُناسِبةٍ لذكر الجزاء ليست في غيرِه من الألفاظ، فكأنَّه قيل: إنْ يُحصِّلوكم ويُدرِكوكم ويَأخُذوكم ويَأسِروكم ويَغلِبوكم. كما يدلُّ لفظ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ على أنَّ الكافرين يَتربّصون بكم لأخْذِكم وخَطْفِكم بسرعةٍ مع قوَّةٍ في التَّمكُّن منكم، فإنَّ مَن يُلقي إليهم المودَّةَ يأمَنُهم في نفسِه بحسبِ ظنِّه، فناسَبَ الدَّلالة على أنَّ الكافر يدركُه ويأخذُه بسرعةٍ من مأمنِه بحيث يكون متمكّنًا منه، فقد قيل: ثَقِفَ الشّيءَ؛ أي: أخَذَهُ بسرعة. فلمّا كان لفظُ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾ دالًّا على هذه المعاني ناسَبَ أن يكون الجزاءُ بالجمع بين إظهارِ عداوتِهم الشّديدةِ وتمكُّنِهم منها وبسطِهم أيديَهم بالقتل وألسنتِهم بالشَّتيمة والإهانة. فناسبُ الجزاءُ الشَّرطَ، ودلَّ على أنَّ الشّرطَ سببٌ للجزاء وموصلٌ إليه، وليس من مُفردةٍ تدلُّ على هذه المعاني المُناسِبةِ للمَقامِ سوى مُفردةِ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾.

دلالةُ حذفِ مُتعلّقِ الفعلِ ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾:

التَّربُّصُ بالمؤمنينَ دَيْدَنُ الكافرينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

حُذِفَ متعلّقُ الفعل ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾، فجاء مُطلَقًا غيرَ مقيَّد، فلم يقل: (إن يثقفوكم في الحرب) أو نحوَ ذلك؛ للإشعارِ بأنَّ ما يترتَّبُ على الظَّفَرِ بالمؤمنين هو أمرٌ عامٌّ، سواءٌ كان في الحربِ أم في غيرِها؛ ليتناولَ اللَّفظُ بسبب حذفِ المتعلّق عُمومَ الأمكنة والأزمنة؛ أي: إنْ يَثقَفوكم في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وفي أيِّ مكانٍ من الأمكنة[1].

دلالةُ تعلُّقِ الجوابِ بالشَّرط:

إنْ ظَفِرَ أعداءُ اللهِ بالمؤمنين فلن يُراعوا لهم مودَّةً ولا قُرْبى

لمّا كانتْ جملةُ جوابِ الشّرط على معنى تعلُّقِها بالشّرط، وأنَّها تقعُ بمجرَّدِ وقوع الشّرط أفادَتْ جملةُ الجواب في قوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.

﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أنَّهم يكونون لكم أعداءً بمجرَّدِ ثَقْفِكم والظَّفَرِ بكم، ولن يَتَماهلوا في الأمر، ولن يُراعوا إلقاءَ مودَّتِكم إليهم، ففي مجيءِ الجزاءِ بظُهورِ العَداوةِ وخُلوصِها إشارةٌ إلى أنَّ هذه المودَّةَ الَّتي بينَ بعضِ المؤمنين والمشركين هي الَّتي تُخفي هذه العداوةَ الَّتي في صدور المشركين لهم؛ فإذا أمْكَنَت الفرصةُ وتمكّن المشركون منهم ظَهَرَتْ هذه العداوةُ الكامنة[1]، وظَهَرَتْ قسوتُهم على المؤمنين بالفعلِ والقول.

بلاغةُ الإطنابِ بقولِهِ: ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ دون (يُعادوكم):

آثَرَ النّظمُ الكريم ذكرَ الفعلِ ﴿يَكُونُواْ﴾ في جوابِ الشَّرطِ على أن يُقال: إنْ يَثقَفوكم يُعادوكم؛ لِما يُفيدُهُ فعلُ الكون من تمكُّنِ عداوتِهم للمؤمنين وإصرارِهم عليها وعَراقتِهم فيها، وهو دالٌّ على الاستمرار؛ أي: أنَّهم يكونون أعداءً على الدّوام، كما أنَّ وصْفَهم بالاسم ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ أبلغُ في ثبوت العداوةِ من التّعبير بالفعل (يعادوكم)؛ ليدلَّ على أنَّ عداوتَهم للمؤمنين راسخةٌ فيهم. كما أفاد التَّعبيرُ بـ﴿يَكُونُواْ﴾ أنَّهم إنْ يَثقَفوكم يُخلِصوا لكم العداوةَ؛ لرُسوخِهم فيها[2]، ويُظهِروها لكم[3]، فهم لا يُسِرّونها كما تُسِرّون في إلقائِكم إليهم بالمودّة، ولن يكونوا لكم أولياءَ كما أنتم لهم أولياءُ. والمقصودُ اشتدادُ عداوتِهم وإظهارُها، ففيه إشارةٌ إلى خيانتِهم لَمن يتقرّب منهم ويُلقي إليهم بالمودّة بعدَ ظُهورِهم والظَّفَر بالمؤمنين. كما أفاد مجيءُ الفعل ﴿يَكُونُواْ﴾ بصيغةِ المضارع أنَّ عدواتَهم للمؤمنين ثابتةٌ مستمرَّةٌ متجدِّدةٌ لا يَنفَكّون عنها.

عَراقةُ عَداوةِ الكافرين للمؤمنين، ورُسوخُها فيهم، وتَجَدُّدُها في كلِّ زَمان

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 894.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 46.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿يَكُونُواْ﴾ إلى الضَّمير:

سببُ عداوةِ الكافرين للمؤمنين هو إيمانُهم بالله

أُسنِدَ فعلُ الكون في قوله: ﴿يَكُونُواْ﴾ إلى ضميرِ الجماعةِ العائدِ إلى عدوِّ اللّه، والمقصودُ أنَّ جميعَ الكافرين يَرغَبون في الظّفر بالمؤمنين. فأفادَ تعميمُ الضَّمير أنَّ الأمرَ ليس مختصًّا بمَن يُظهِرُ عداوتَه للّهِ وللمؤمنين، بل هو عامٌّ في جميع الكافرين، إنْ ظَفِروا بالمؤمنين وتمكَّنوا منهم يكونوا لهم أعداءً؛ لأنَّ سببَ العداوةِ هو الإيمانُ باللّهِ الَّذي أكرَمَ اللّه تعالى به المؤمنين وحرَمَ منه الكافرين.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾:

مُسارَعةُ الكافرين إلى الظَّفَرِ بالمُؤمنين دليلُ الحقدِ الدَّفين والكيدِ اللَّئيم

قُدِّمَ متعلّق خبرِ كان على خبرِها في قوله تعالى: ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً﴾؛ لتخصيصِ عداوتِهم بالمؤمنين[1]؛ بمعنى: أنَّهم إنْ يظفروا بكم فلن يكونوا أعداءً إلّا لكم؛ لأنَّ عداوتَهم لكم بسببِ كفرِهم باللّه وبرسولِه ﷺ وإيمانِكم بهما، ولأنَّ ملَّةَ الكفرِ واحدةٌ. كما يُفيد تقديمُ شبهِ الجملة ﴿لَكُمۡ﴾ مسارعتَهم إلى عداوتِهم ورغبتَهُم فيها، واهتمامَهُم بها، حتّى إنَّهم إنْ ظَفِروا بالمؤمنين سارَعوا إلى عداوتِهم؛ فليس لهم شأنٌ معهم سوى أن يكونوا لهم أعداءً، وأنْ يُمارسوا ما يترتَّبُ على هذه العداوةِ؛ مِن بسطِ أيديهم وألسنتِهم إليهم بالضَّرب والقتل والشَّتيمة والإهانة.

نكتةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿أَعۡدَآءً﴾:

كثرةُ الأعداءِ للمُؤمنين، وتَنَوُّعُ عَداوَتِهم

جاء لفظُ ﴿أَعۡدَآءً﴾ نكرةً؛ لإفادةِ الكثرةِ، وشُيوعِ عَداوتِهم وتنوُّعِها، وأنَّ المؤمنين لرُبَّما جَهِلوا بعضَ أنواعِها، فهم أعداءٌ في أمورٍ متوقَّعةٍ وأمورٍ غيرِ مُتوقَّعة.

بلاغةُ العطفِ في ترتُّبِ المعطوفِ على المعطوفِ عليه:

تفيدُ واوُ العطف في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 493.

اجتماعَ المعطوف والمعطوف عليه في كونِهما مُعلَّقَين على الشَّرطِ؛ بمعنى: أنَّ كلًّا من المعطوف والمعطوف عليه مسبَّبٌ عن ظَفَرِ الكافرين بالمؤمنين إنْ وقع. وسببُ اجتماعِ المعطوفاتِ في الجزاءِ الإشعارُ بشدَّةِ ارتباطِ إظهارِ العداوةِ بالقتلِ والضَّربِ والشَّتيمةِ والإهانة. ويُحتمَلُ أن يكون العطفُ في جزاءِ الشّرط على معنى أنَّه لا يكون المعطوفُ ولا يحصلُ حتَّى يحصلَ المعطوفُ عليه؛ أي: أنَّ ظَفَرَ الكافرين بالمؤمنين سببٌ في وقوعِ الجزاء، وهو إظهارُ خُلوصِ عداوتِهم، وهذا سببٌ في أن يَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسنتَهم بالسّوء؛ ليفيدَ الشَّرطُ والجزاءُ أنَّ ظَفَرَهم بهم سببٌ في إظهارِ خُلوصِ عَداوتِهم، وإظهارَ خُلوصِ عداوتِهم سببٌ في أن يَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسنتَهم بالسّوء، فيكونُ معنى الشَّرطِ والجزاء على كلامين، وتقديرُهُ: إنْ يَثقَفوكم يكونوا لكم أعداءً، وإنْ يكونوا لكم أعداءً يَبسُطوا إليكم أيديَهم، فجاء العطفُ على مقتضى ترتُّبِ المعطوفِ على المعطوف عليه وتسبُّبِهِ منه. وهذا الأسلوبُ ذكره عبدُ القاهر الجُرْجانيُّ، ومثَّلَ له بقولهم: إنْ رجَعَ الأميرُ إلى الدّارِ استأذنتُهُ وخرجتُ، فالخروجُ لا يكونُ حتّى يكونَ الاستئذانُ، وقد صارَ الرُّجوعُ سَببًا في الخروج، من أجلِ كونِهِ سببًا في الاستئذان[1].

بَسْطُ الكافرينَ أيديَهم بالقتالِ والإهانةِ مُترتِّبٌ على عَداوَتِهم للمُؤمنين

دلالةُ تقديمِ العَداوةِ على بَسْطِ الأيدي بالسّوءِ:

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ على سبيلِ التَّرَقّي في عَداوةِ الكافرين للمؤمنين؛ تحذيرًا للمؤمنين وإلهابًا لقلوبهم، فذَكَرَ إظهارَ العَداوةِ وخُلوصَها إنْ ظَفِروا بالمؤمنين، ثمَّ تَرَقّى في ذكرِ الأثَرِ الدُّنيويِّ لها بالفعل والقول؛ أي: ما يترتَّبُ على إظهارِ العَداوةِ مِن الضَّررِ ببَسْطِ أيديهم بالقتلِ وألسنتِهم بالسّوء.

تَرَقّي الأعداءِ في مَظاهِرِ الكراهيةِ والحقدِ يأتي تِباعًا مُباغتةً

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 234.

دلالةُ الكنايةِ في بَسْطِ اليد:

بَسْطُ اليدِ إلى الآخَرينَ كنايةٌ عن إلحاقِ الضُّرِّ والأذى بهم

يدلُّ بسطُ اليد في قوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ على عمل اليدِ الَّذي يكون بالضَّرب والطّعن والتّقييد في الأسر والقتل[1]، فهو كنايةٌ عن عموم الضُّرِّ والأذى اللَّذَينِ يكونان باليدِ وكثرتِهما، ويُلحَظُ أنَّ (بسطَ اليدِ) في القرآن الكريم إن قُيِّدَ بحرفِ الجرِّ (إلى) أفادَ معنى الأذى والضُّرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: 11]، وقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: 28].

بلاغةُ الاستعارةِ في بَسْطِ الألْسِنة:

أذيَّةُ الكافرين للمُؤمنين بألسنتِهم لا تَقِلُّ سوءًا وكثرةً عن أذيَّتِهم لهم بأيديهم

في تعديةِ فعلِ البسطِ إلى الأيدي في قوله تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ كنايةٌ عن كثرةِ الأذى والسّوءِ والضُّرِّ الواقعِ من الكافرين على المؤمنين إنْ هم ظَفِروا بهم، كما تقدَّمَ في الفقرة السّابقة.

وفي تعديةِ فعلِ البسطِ إلى الألسنة ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ بسطَ الألسُنِ على الحقيقةِ لا يتأتّى كما يتأتّى بسطُ الأيدي، وإنَّما المرادُ إظهارُ الكلام السَّيِّئِ فيهم بعدَ زَمِّ الألسُنِ عنهم، فيكون الكلامُ كالشَّيءِ الَّذي بُسِطَ بعدَ انطِوائِه، وأُظهِرَ بعدَ إخفائِه. فشبَّه النَّظمُ الكريمُ كلامَ الكافرين بألسنتِهم على المؤمنين إنْ ظَفِروا بهم بشيءٍ مبسوطٍ من يدٍ أو نحوِها، بجامعِ الكثرةِ في كلٍّ منهما على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

ويجوزُ أن يكون بسطُ اللِّسانِ من باب المُزاوَجة، وأنَّه تعالى إنَّما حَمَلَ بسطَ الألسُنِ على بسطِ الأيدي ليتوافَقَ الكلام، ويَتَزاوَجَ النِّظام؛ لأنَّ الأيديَ والألسنَ مُشتركةٌ في المعنى المشار إليه، فللأيدي الأفعال، وللألسُنِ الأقوال، وتلك ضَرَرُها بالإيقاع، وهذه ضَرَرُها بالسَّماع[2].

(1) الكرماني، لباب النّقول، ص: 3227، والبغوي، معالم التّنزيل: 8/ 93.
(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 331.

ولمّا قيَّد البسطَ بقوله: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أفادَ أنَّ المرادَ عملُ اليدِ الَّذي يَضُرُّ كالضَّرب، وعملُ اللِّسانِ الَّذي يُؤذي مثلُ الشَّتمِ والتَّهكُّمِ والاستهزاء[1].

فائدةُ تقديمِ متعلّق المفعول:

إلـهـابُ قـلـوبِ المؤمنين ببيانِ حقائقِ المُناوِئين

قدِّم متعلّق المفعول به - وهو شبهُ الجملة ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ - على المفعول به ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ ليفيد التّخصيص الإضافي؛ بمعنى: أنَّهم يبسطون إليكم خاصَّة أيديَهم؛ فكأنَّه لو اجتمع عندهم قتلُكم وقتلُ عدوٍّ آخرَ له عداوةٌ دنيويَّة لسارعوا إليكم في قتلِكم والإساءة إليكم؛ ففيه تلهيبٌ لقلوب المؤمنين في التّحذير من موالاتِهم وإلقاءِ المودّة إليهم.

دلالةُ عطفِ بَسْطِ الألسُنِ على بَسْطِ الأيدي:

بَسطُ اللِّسانِ إمـدادُ الأعداء، بما فيه مَساءَةُ أهلِ الإيمان

تفيدُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾ العطفَ على معنى التَّشريك بين أيديهم وألسنتِهم، وهي مانعةُ خلوٍّ؛ بمعنى: أنَّهم يجمعون بين بسطِ أيديهم وبسطِ ألسنتِهم إليكم؛ أي: أنَّهم يبسطون إليكم ألسنتَهم مضمومةً إلى أيديهم، أو أنَّهم يوقِعون بسطَ الأيدي وبسطَ الألسُنِ كلَّ واحدٍ منهما على حِدَةٍ؛ فمرَّةً يبسطون أيديَهم، ومرَّةً يبسطون ألسنتَهم بالسّوء. ودلَّ بسطُ اللِّسان على السَّبِّ والشَّتم والتَّهكُّم[2]، والاستهزاءِ الَّذي يكون باللِّسان.

دلالةُ جَمْعِ الأيدي والألسِنة:

أذى المشركين للمُؤمنين ماديٌّ ومعنويّ:

جُمِعَ لفظُ الأيدي والألسِنة في قوله تعالى: ﴿أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾؛ لبيانِ التَّنوُّع في الأضرار الَّتي يُلحِقُها المشركون بالمؤمنين في الجانبِ المادّي والفِكريِّ المعنويّ.

فائدةُ تقييدِ فعلِ البَسْط بالسّوء، ودلالةُ الباءِ الجارَّة:

لا يأتي مِن أهلِ السّوءِ إلّا السّوء

الباء الجارَّةُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ للمُلابَسة، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقان بمحذوفٍ حالٍ من الضَّمير في ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 140.

(2) الكرماني، لباب النّقول، ص: 3227، والبغوي، معالم التّنزيل: 8/ 93.

حالٌ مقيِّدةٌ لمعنى بسطِهم أيديَهم وألسِنتَهم، والتَّقديرُ: يبسطوا إليكم أيديَهم وألسِنتَهم مُتلبِّسين بالسّوء، فالسّوء حالُهم الدّائمُ الذي لا يفارقُهم إنْ ظَفِروا بكم، فلا يأتي من بسطِ أيديهم وألسنتِهم إليكم إلّا ما يَسوءُكم ويضرُّكم، فموالاةُ هؤلاء الكفرةِ غيرُ نافعةٍ، بل هي ضارَّةٌ بكم إنْ ظَفِروا بكم، وقد أفاد القيدُ توكيدَ القصدِ المذمومِ لبسطِ الكافرين أيديَهم وألسنتَهم.

دلالةُ تعريفِ لفظةِ (السّوء):

السّوءُ لفظٌ جامعٌ لِما يوقِعُ الأذى في النُّفوسِ والأبْدان

(أل) في قوله سبحانه: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ جنسيَّةٌ للاستغراق؛ لتفيدَ استغراقَ جميعِ أنواع السّوء الَّذي يكون باليدِ والألسِنة، والمعنى: يبسُطوا إليكم أيديَهم وألسِنتَهم بكلِّ ما مِن شأنه أن يسوءَكم[1]. وليس ذكرُ القتلِ والطَّعنِ في بسط أيدي الكافرين، وذكرُ الشَّتم والإهانة في بسطِ ألسِنتِهم إلّا تمثيلًا للغالبِ والأقربِ إلى الواقع.

دلالةُ المُقابَلةِ في استعمالِ مُفردةِ (السّوء):

مَنْ أحسَنَ إلى الكافرين بإلقاءِ المودَّةِ قابَلوه ببَسْطِ السّوء

لمّا كان الإلقاءُ بالمودَّةِ مُشعِرًا بإحسانِ المُلقي بما يُلقيه من المودّة إلى الكافرين ناسَبَهُ أن يُذكَرَ في مُقابِلِهِ قولُهُ: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ ليفيدَ أنَّه إنْ أحسنتُم إليهم قابَلوكم بالإساءةِ إنْ تَمَكَّنوا منكم وظَفِروا بكم؛ لأنَّهم لا يأتي منهم إلّا السّوء؛ ففيه بيانٌ للمُقابِل، وتذكيرٌ للمؤمنين وتحذيرٌ لهم من عاقبةِ اتِّخاذ عدوِّ الله أولياءَ والإلقاءِ إليهم بالمودَّة.

كما أنَّ لفظَ (السّوء) لمّا كان من المعاني العامَّة الدّالَّة على كلِّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأحوال النَّفسيَّة والبدنيَّة أفادَ أنَّ الكافرين يبسُطون إلى المؤمنين أيديَهم وألسِنتَهم بكلِّ ما يَغُمُّهم ويُؤذيهم.

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكۡفُرُونَ﴾:

ذهَبَ بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ الواوَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 494.

معنى العطفِ هو الظّاهرُ المُتبادِرُ، والحالُ مِن مَعانيهِ اللّزوميَّة

﴿تَكۡفُرُونَ﴾ للحالِ من ضميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾[1]؛ والمعنى: وهم قد ودّوا مِن الآنَ أن تكفُروا، فكيف إنْ ظَفِروا بكم وأسَروكم؟! فإنَّ أهمَّ شيءٍ عندَهم حينئذٍ أن يَرُدّوكم كفّارًا؛ فجملةُ الحالِ دليلٌ على مَعطوفٍ مُقدَّرٍ على جَوابِ الشَّرْطِ، كأنَّهُ قيلَ: إنْ يَثْقَفوكُمْ يَكونوا لَكُمْ أعْداءً، ويَرُدّوكُمْ كُفّارًا. وإنَّما لم تكنْ جملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ معطوفةً على جملةِ الجواب؛ لأنَّ محبَّتَهُم أنْ يَكفُرَ المُسلِمونَ محبَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالشَّرطِ؛ لأنَّ الكافرين يَوَدّون كفرَ المؤمنين على كلِّ حالٍ، سواءٌ ظَفِروا بهم أم لم يَظفَروا، وهذه نكتةُ وقوعِ فعلِ ﴿وَدُّواْ﴾ ماضيًا لا مُضارِعًا كالأفعالِ الثَّلاثةِ قبلَهُ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾، و﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً﴾، و﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه ليس مَعطوفًا على جوابِ الشَّرطِ[2].

والظّاهرُ أنَّ الواوَ عاطفةٌ؛ لأنَّ العطفَ هو المُتبادِرُ، وكونُهُ على الجزاءِ أبعدُ مَغْزًى، وأبلغُ معنًى، وهو اختيارُ جمهورِ المفسِّرين كالزَّمخشريِّ والبيضاويِّ والنَّسفيِّ والآلوسيِّ وغيرِهم. وسببُ كونِهِ أبلغَ في المعنى هو أنَّه إذا كانت الواوُ عاطفةً والجملةُ من تمامِ جزاءِ الشَّرطِ أفادَ الكلامُ أنَّ ودادتَهُم لأنْ يَكفُرَ المؤمنون عندَ الظَّفَرِ والتَّسليط أقربُ وأطمعُ لهم فيهم، كما أنَّ مِن الوَدادةِ تزيينَ الكفرِ وتحسينَهُ والتَّرغيبَ فيه، وهذا يكونُ بعدَ الظَّفَرِ أقربَ منهُ قبلَه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿وَوَدُّواْ﴾:

مَجمَعُ رغبةِ الكافرين في ارتدادِ المُؤمنين عن الدّين

جاءَ الفعلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوَدُّواْ﴾ بصيغةِ الماضي دون المضارع مع اقتضاءِ الظّاهرِ له باعتبارِ حُدوثِه في المستقبل، وذلك أنّه لَمّا لَمْ يكنْ يَحتمِلُ ودادتُهم لكفرِهم من الشَّكِّ فيها ما يَحْتَمِلُهُ أنَّهُمْ إذا ثَقِفوهُمْ صاروا لَهُمْ أعْداءً، وبَسَطوا أيْدِيَهُمْ إليهم بالقَتْلِ وألْسِنَتَهُمْ بالشَّتْمِ أتَى فيهِ بلَفْظِ الماضي؛ لأنَّ ودادتَهُمْ في ذَلِكَ مَقْطوعٌ بِها،

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 140.

وكَوْنَهُمْ أعْداءً وباسِطي الأيْدي والألْسُنِ بالسّوءِ مَشْكوكٌ؛ لِاحْتِمالِ أنْ يَعْرِضَ ما يَصُدُّهُمْ عَنْهُ، فَلَمْ يُتَحَقَّقْ وُقوعُهُ[1].

كما أنَّ صيغةَ الماضي تُبيِّن أنَّ رغبةَ الكافرين في ارتدادِ المؤمنين عن دينِهم هي رغبةٌ قديمة، لم تنقطعْ بالمودَّة الَّتي تجري بينهم وبين هؤلاء المؤمنين، بل هي قائمةٌ في صدورِ المشركين، لن تموتَ أبدًا إلّا بعودة المؤمنين كفّارًا[2]، فالعطفُ على سبيل تَرَقّيهم في العداوة وإظهارِها؛ لعلمِهم أنَّ الدّينَ أعزُّ على المؤمنين من أرواحِهم، والعدوُّ أهمُّ شيءٍ عنده أنْ يَقصِدَ أعزَّ شيءٍ عندَ صاحبِه[3].

ومِن بلاغةِ العُدولِ إلى صيغةِ الماضي عندَ مَن جعَلَ الواوَ في قوله تعالى: ﴿وَوَدُّواْ﴾ للحالِ هو الإيذانُ بأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ليس على معنى أنَّه مُرتَّبٌ على ما قبلَهُ، وليس جزاءً للظَّفَرِ بالمؤمنين، فليس بسطُ أيديهم سببًا في ودادتِهم أن يكفرَ المؤمنون، وإنْ كان في ودادةِ الكافرين تَرَقٍّ في العداوة؛ لأنَّ المعنى: ودّوا لو يَرجِعونكم كفّارًا بتزيينِ الكفرِ والتَّرغيبِ فيه وفرطِ الاجتهاد في التَّحريضِ على الارتدادِ عن الإيمان باللّه ورسولِه ﷺ، وهو أشدُّ درجاتِ العداوةِ للإيمانِ وأهلِه وأبلغُها[4].

فائدةُ استعمالِ ﴿لَوْ﴾ المصدريَّة:

أفادَ استعمالُ ﴿لَوْ﴾ الَّتي للتَّمنّي في قولِه تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ المصدريَّةَ بدخولِها على المضارعِ وسَبْكِها بالفعل ﴿وَوَدُّواْ﴾، فتكونُ مع ما دخلتْ عليه في تأويلِ مصدرٍ منصوبٍ على المفعوليَّة، والتَّقدير: ودّوا كفرَكم؛ ليُفيدَ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أنَّهم تَمَنَّوا كفرَ المؤمنين من غيرِ تقييدٍ بأيِّ وصفٍ، فهم

رَغْبةُ الكافرين في رِدَّةِ المُؤمنين بـاقـيـةٌ في أفـئِـدَتِـهـم لا يَحولون عنها

(1) الزّركشي، البرهان: 2/ 362.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 894.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 48.

يتمنَّون أن تتَّصِفوا بحقيقةِ الكفر على أيِّ وصفٍ أو حالٍ كان، كما أنَّ التَّعبير أتى بالفعل المضارع ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ الَّذي أفادَ وقوعَ ذلك في أيِّ وقتٍ في المستقبل، وأنَّهم لا يَمَلّون عن رغبتِهم ووُدِّهم لهذا الأمر، فهو عملُ القلبِ وأُمنيَّةُ الفؤاد، وهو ما يَحُضُّ المؤمنين على شدَّةِ الحذر، وكبيرِ الاحتياطِ مِن صَنيعِهم.

دلالةُ اجتماعِ فعلِ الوُدِّ مع ﴿لَوۡ﴾:

التَّعبيرُ بالفعل الدّالِّ على التّمنّي مع ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أقوى في الدَّلالةِ على شدَّةِ التَّمنّي من استعمال (لَو) وحدها، حتّى إنَّ بعض البلاغيّين ذهب إلى أنَّ (لو) إنَّما تفيدُ التَّمنّيَ إنْ جاءت بعد فعلٍ فيه معنى التَّمنّي مثلِ (ودَّ)[1]؛ ليُفيدَ أنَّ الكافرين يحبّون ارتدادَ المؤمنين ويتمنَّونه غايةَ التَّمنّي[2]. ولمّا جاء التَّمنّي بلفظِ ﴿لَوۡ﴾ أفادَ أنَّ المقصودَ فَرْضُ غيرِ الواقع واقعًا؛ ليومِئَ إلى أنَّ تمنّيَهم هذا إنَّما هو على سبيل فَرْضِ المُحالِ؛ تحذيرًا للمؤمنين.

رِدَّةُ المؤمنين غايةُ أماني أعداءِ اللهِ، وهو ما يَدُلُّ على حربِ العَقيدة

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ الفعل:

حُذِفَ مُتعلّقُ الفعلِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾؛ ليفيدَ عُمومَ ما يَوَدُّونه أنْ يقع مِن الكفر في قلوب المؤمنين، فهم يَوَدّون أن يكفرَ المؤمنون باللهِ ورسولِه والقرآنِ، وأنْ يَتَّصِفوا بكلِّ ما مِن شأنِه أن يجعلَهم يَحيدون عن الحقِّ الَّذي هم فيه. ويُحتمَلُ أن يكون حذفُ المتعلّقِ لمعاملةِ المُتعدّي معاملةَ اللّازم، بحيث يتَّصِفُ المؤمنون بصفةِ الكفر، فيَسْتَووا هم والكافرون في الدّينِ الباطل، بقطعِ النَّظرِ أكانوا أهلَ كتابٍ أو وثَنيّين، فَلْيكونوا كَفَرةً من أيِّ نوعٍ، إلّا أنْ يكونوا على دينِ الإسلام.

حِرْصُ الكافرين على أنْ يكفُرَ المؤمنون بكلِّ ما آمَنوا به

(1) التّفتازاني، المطول، ص: 407.

(2) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 421.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"